صفته واخلاقه

الصاحب ابن عباد علم من اعلام القرن الرابع جمع بين الوزارة والكتابة والسيف والقلم وكان صدراً في العلم والادب وغاية في الكرم وجلالة القدر وفرداً في الرياسة وكثرة الفضائل فمحاسنه تربو كثيراً على زلاته .

هو تلميذ ابن العميد وصنيعته ووارثه في الوزارة والطابع على غراره في السياسة والادب والمربي عليه في الجود والابهة .

يتشابه الوزيران في الادب ومناحيه واساليبه ويختلفان في العلم والاخلاق فابن العميد طويل الباع في الفلسفة وفروعها غير متمكن من العلوم الدينية راجح العقل قليل الكلام ذو تؤدة وروية في اعماله واقواله لا يحب التعاظم والتبجح في علمه وعمله . والصاحب عالم في اصول الدين وفروعه يقدم النص على العقل منحرف عن الفلسفة واصحابها معجب بنفسه فخور بعلمه وادبه مأخوذ بمظاهر العظمة والخيلاء تيّاه على الكبراء والرؤساء حاضر البديهة قوي الحجة شديد العارضة طلق اللسان محكم الجواب سريع النكتة كثير

الجدل يتكلم بلسانه واعضائه قال ابو حيان التوحيدي : « كان ابو الفضل ابن العميد اذا رأى الصاحب قال : احسب ان عينيه ركبتا من زئبق وعنقه عمل بلولب . وصدق فانه كان ظريف التثني والتلوي شديد التفكك والتفتل كثير التعوج والتموج » وهو مع ذلك مشوه الصورة كما قيل .

قال الثعالبي في يتيمة الدهر : « ليست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والادب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه اشتات المفاخر ، لان همة قولي تنخفض عن بلوغ ادنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفي يقصر عن ايسر فواضله ومساعيه . ولكني اقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ماقامت للفضل في دهرنا سوق . وكانت ايامه للعلوية والعلماء ، والادباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضائلهم ، ومترع آمالهم ، وامواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه او يسمعه »

مذهبه

كان عباد والد الصاحب ينصر مذهب الاعتزال وكان ولده الصاحب يتشيع بمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية يفضل علياً ويرى صحة امامة الخلفاء الثلاثة قبله وله في ذلك كتاب اسمه الامامة في تفضيل علي وتصحيح امامة من تقدمه والصاحب نفسه يقول :

حب علي بن ابي طالب هو الذي يهدي الى الجنه
ان كان تفضيلي له بدعة فلعنة الله على السنه

ونسب اليه صاحب كتاب الفرق بين الفرق هذين البيتين :

دخول النار في حب الوصي وفي تفضيل اولاد النبي
احب اليّ من جنات عدن اخلدها بتيم لوعديي

وكتب الصاحب الى الشريف ابي طالب رسالة ورد فيها: (... فاني [1] له ومنه ومختلط بالولاء معه ..... وقد قال الصادق عليه السلام نحن الاعلون وشيعتنا العلويون وقبله ماروي مولى القوم منهم)

وكان يبغض معلوية وينال من يزيد قال :

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٢٠ (مخطوط)

ناصب قال لي معاوية خا لك خير الاعمام والاخوال
فهو خال للمؤمنين جميعاً قلت خالي لكن من الخير خالي

قال سهل بن المرزبان كان الصاحب اذا شرب ماء بثلج انشد على أثره :

قعقعة الثلج بماء عذب تستخرج الحمد من اقصى القلب

ثم يقول اللهم جدد اللعن على يزيد .

وكان مثل والده يذهب مذهب المعتزلة في الاصول و يقول بخلق القرآن و ينكر الجبر قال الصاحب :

تعرفت بالعدل[1] في مذهبي ودان بحسن جدالي العراق
فكلفت في الحب مالم اطق فقلت بتكليف مالا يطاق

وقال ايضاً :

كنت دهراً اقول بالاستطاعه وارى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتي في هوى ظبي فسمعاً للمجبرين وطاعه

ووقع في رقعة لأبي الحسن الشقيقي البلخي « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان اقمت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر »

(١) يسمى المعتزلة اهل العدل والتوحيد .

وقا ابو محمد الخازن يمدحه :

كذاك توحيده الوى باربعة كفر وجبر وتشبيه وارجاء

وقال ابو سعيد الرستمي فيه :

فنصبت للاسلام اكرم راية وقصمت اهل الجبر والالحاد

وقال السلامي يهجوه :

يا ابن عباد بن عبا س بن عبد الله حرها
تنكر الجبر واخرج ت الى العالم كرها

وقال قوم من اهل اصبهان للصاحب لو كان القرآن مخلوقاً لجاز ان يموت ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ قال لو مات القرآن كان رمضان يموت ايضاً و يقول لا حياة لي بعدك ولا نصلي التراويح ونستريح .

و كان الصاحب يجادل الناس و يدعوهم لمذهبه قال في بعض رسائله . (... فقد [1] كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على اهل عدل الله وتوحيده ،والتصديق بوعده ووعيده ،هذا وفي فقهائها وفور ،وفي الفضل بها ظهور ، وقد اعان الله على بث كلمة الحق،وسمع الاكثر على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٠٥ و ٢٠٦ (مخطوط)

شغلي، من الانتصاب في بعض ليلي، للمذاكرة والتبيين، والتكشيف والتخليص فقد صلح خلق كثير والحمد لله رب العالمين)

ومن كتاب له الى اهل الصيمرة (... كنتم بحمد الله ومنه وطوله وفضله، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله، وصدقه في وعيده ووعده، كان بلدكم من بين البلاد كغرة ادهم، وشهاب في ليل مظلم، وما في النعم أجل موقعاً، واهنأ مشرعاً، من النعمة في القول بالحق والدعاء اليه، والتدين به والبعث عليه، ومهانة من شبه الله بخلقه فتتابع في جهله، او جوره في فعله فشك في حسن نظره وطوله، والحمد لله الذي جمع على كل الصدق آراءنا، وحمى من مكايد الشيطان اهواءنا، يزيدنا تسديداً وتأييداً، وتثبيتاً وتمهيداً، ويوفقنا لصالح الاعمال، كما وفقنا لصالح الاقوال)

وقال ابو حيان التوحيدي : دخل الناس في مذهب ابن عباد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه واجتهد بالحسين المتكلم الكلابي ان ينتقل الى مذهبه فقال الحسين دعني ايها الصاحب اكون مستحداً لك مما بقي غيري فان دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه و يبدو للناس عواره فضحك

الصاحب وقال قد اعفيناك يا ابا عبدالله و بعد فما نبخل عليك بنار جهنم اصل بها كيف شئت .

وزعم ابو حيان التوحيدي ان الصاحب شديد التعصب على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وانه كان يسب اصحاب الهندسة وانه سمعه بالري يقول : طبع العقل على ان يشهد للباطل كما يشهد للحق ولهذا اختلف العقلاء في جميع امر الدين والدنيا .

وقال صاحب معاهدا لتنصيص: كان الصاحب يبغض من يميل الى الفلسفة .

وقال ابوحيان التوحيدي في مثالب الوزيرين قال الصاحب : جاءني بعض الحمقى ورغبني في الهندسة فابتدأ فاثبت خمسة وعشرين وخط خطاً ووضع شكلا وطول وزعم انه يعمل برهانا على ذلك فقلت له كنت اعرف ان هذا خمسة وعشرون ضرورة وقد شككت الآن فانا مجتهد حتى اعلم بالاستدلال وهذا هو الخسار

وهكذا فان الصاحب وان كان معتزليا في الاصول فان طريقته العملية في البحث طريقة اهل الحديث الذين يعتدون

بالنص اكثر من سائر الادلة وذلك لعنايته بالحديث وروايته وسنقف على ذلك عند الكلام على علمه ·

كرمه

من اظهر صفات الصاحب الكرم وكثرة البذل واصطناع المعروف فهو مطبوع على السخاء منذ حداثته لان امه كانت تعطيه وهو صغير في كل يوم دينـارا ودرهماً ليتصدق بهما على اول فقير يلقاه في طريقه الى المسجد الذي كان يدرس به · وهو اكثر بذلا من ابن العميد ولقد مر بك في الصفحة العاشرة من هذه الرسالة ان الصاحب انكر في نفسه على ابن العميد عدم اكرامه لضيوفه في عشية من عشايا شهر رمضان · على ان جود الصاحب لا يمكن ان يكون كله خالصاً لوجه الله والبر والاحسان فكثير منه كان بدافع حب الذات لان الجود من اعظم اسباب الشهرة وامتلاك القلوب وتخليد الذكر وامتداد السلطة والصاحب وزير مغرى بالعظمة والقوة وحب الاطراء واشاعة الذكر والاشادة بمروءته وفضائله ومامن وسيلة انجع من الكرم لبلوغ تلك الغاية لذلك فقد عظمت عطاياه للشعراء الذين يمدحونه حتى عرض على المتنبي ان يشاطره ماله في سبيل قصيدة يقولها المتنبي فيه·

كان لا يدخل عليه احد في شهر رمضان بعد العصر كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار و كانت داره لا تخلو ليلة من ليالي الشهر من الف نفس مفطرة و كانت صلاته وصدقاته ونفقته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع السنة .

و كان يراعي من ببغداد والحرمين من شيوخ الكتاب والشعراء واولاد الادباء والزهاد والفقهاء بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم فكان ينفذ الى بغداد من ذلك خمسة الاف دينار في كل سنة تفرق على الفقهاء والادباء و كان يحمل الى ابي اسحق الصابي خمسماية دينار والى حفيده هلال الف درهم

قال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : كان ما ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الاشراف واهل العلم والغرباء الزوار ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا واجر الآخرة يزيد على مائه الف دينار .

وقال الثعالبي : حدثني عوف بن الحسين الهمذاني التميمي

قال : كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبت حسبانات كاتبها وكان صدبقي مبلغ عمائم الخز التي صرفت في تلك الشتوية للعلويين والفقهاء والشعراء خاصة غير الخدم والحاشية ثمانماية وعشرين . قال : وكان يعجبه الخز ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر ابو القاسم الزعفراني يوماً الى جميع ما فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز الملونة الفاخرة فاعتزل ناحية واخذ يكتب شيئاً فسأل الصاحب عنه فقيل له : إنه في مجلس كذا يكتب فقال : علي به فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه فاعجله الصاحب وأمر ان يؤخذ مافي يده من الدرج فقام الزعفراني اليه وقال : ايد الله الصاحب

اسمعه ممن قاله تزدد به عجباً لحسن الورد في اغصانه

فقال : هات يا أبا القاسم فانشده ابياتاً منها :

سواك يعد الغنى ما اقتنى ويأمره الحرص ان يخزنا
وانت ابن عباد المرتجى تعد نوالك نيل المنى
وخيرك من باسط كفه وممن ثناها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى فاصغر ما ملكوه الغنى

وغادرت اشعرهم مفحما واشكرهم عاجزا الكنا
ايامن عطاياه تهدي الغنى الى راحتي من نأى او دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسيّ لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخز الا انا
ولست اذكر لي جارباً على العهد يحسن ان يحسنا

فقال له الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة ان رجلاً قال له : احملني ايها الامير فأمر له بفرس وبغلة وحمار وناقة وجارية ثم قال : لو علمت ان الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه . وقد امرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لاعطيناكه ثم امر بادخاله الخزانة وصب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت الى غلامه .

ومرض الصاحب وهو في الاهواز بالاسهال فكان اذا قام عن الطست ترك الى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم به الخدم فكانوا يودون دوام علته ولما عوفي تصدق بنحو من خمسين الف دينار .

مكارم اخلاقه

كان الصاحب على علو مكانته وتعاظمه سهل الجانب لاخوانه فانه كان يقول لجلسائه : نحن بالنهار سلطان و بالليل اخوان وقد رويت له حوادث تدل على مكارم اخلاقه وحسن تهذيبه وسعة صدره من ذلك انه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر فجيء بقدح منه فلما اراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم وكان الغلام الذي ناوله واقفاً فقال للمحذر : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بان تجربه في الذي ناولك اياه قال : لا استجيز ذلك ولا استحله قال : فجربه في دجاجة قال : ان التمثيل بالحيوان لا يجوز وامر بصب ما في القدح وقال للغلام انصرف عني ولا تدخل داري بعدها واقر رزقه عليه وقال : لا يدفع اليقين بالشك والعقوبة بقطع الرزق نذالة .

لكن هذا الرجل الذي تحرج عن تجريب شراب مشكوك بسمه في دجاجة اقدم على سم علي بن كامة كما روى ذلك صاحب ذيل تجارب الامم وستطلع على تفصيل هذه الحادثة فيما يأتي .

ورفع الى الصاحب بعض منهي الاخبار ان رجلاً ممن ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في غمار النـاس ثم يتلوم على استراق السمع فوقع الصاحب : دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان .

وقال ابو منصور البيع دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت .

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كان الصاحب يقسم لي من اقباله واكرامه بجرجان اكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه به وتواضعه لي فانشدني لنفسه :

اكرم اخاك بارض مولده وامده من فعلك الحسن
فـالعز مطلوب وملتمس واعزه ما نيل في الوطن

ثم قال لي قد فرغت من هذا المعنى في العينية فقلت لعل مولانا يريد قولي :

وشيدت مجدي بين قومي فلم اقل الا ليت قومي يعلمون صنيعي

فقال ما اردت غيره .

وكان الصاحب قد جعل القاضي عبد الجبار قاضي القضاة

بهمذان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن العلم يأبى ذلك وكان يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب « عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائه اظنه يؤول امره الى ان يكتب « الجبار » .

وقال الصاحب : مافظعني الا شاب بغدادي ورد علينا الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليَّ اخلع نعلك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبني الضحك وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها .

جهلة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت قدرتهم ووقرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يحب التعاظم والبذخ والخيلاء ولقد مر فيما تقدم من سيرته حوادث تدل على ذلك وفيما يأتي تتمة لما سبق .

كان الرجل مفتوناً بمظاهر الابهة والعظمة فاذا بدا منه